ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

السخرية السياسية في عصر الموحدين
من خلال نموذج أحمد بن يحيى العبدري

د. المحجوب قدار
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية للتربية الوطنية فاس مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

مثّلت السخرية السياسية أحد أوجه نقد السلطة الحاكمة خلال العصر الوسيط الإسلامي، اتخذها البعض وسيلة للتعبير عن مواقفه تجاه بعض انحرافات الحكام والاحتجاج ضد بعض قراراتهم الجائرة أحيانًا في حق الرعية، وقد تراوحت بين النقد الضمني والنقد الصريح. ويُعَدّ أحمد بن يحيى العبدري الذي عاش خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي من بين العلماء القلائل الذين أحسنوا توظيف هذا النوع من النقد تجاه حكام بني عبد المؤمن في الغرب الإسلامي، فقد استطاع أن يمارس سخريته السياسية عليهم مستغلاً قدراته العلمية والإبداعية الساخرة وشجاعته السياسية. وقد كشف البحث عن أثر النقد الساخر في الواقع السياسي للموحدين وقدرته على تغييره، سيما إذا كان صادرًا من عالم أديب كبير مثل العبدري الذي أتقن هذا الفن وضحى بامتيازاته من أجل تقويم النظام الحاكم وذلك وفق رؤيته الخاصة. لكن خوف السلطة الحاكمة من نقد العبدري ووعيها بخطورته في تأليب العامة والخاصة عليها هو ما دفعها إلى معاقبته وإلجامه، الشيء الذي يعكس الطبيعة المغلقة للنظام الموحدي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٦ يونيو ٢٠١٧
تاريخ قبول النشر: ١٠ يناير ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:
السخرية السياسية، أحمد بن يحيى العبدري، المنصور الموحدي، الموحدون، نقد ساخر، عصر وسيط، السلطة الحاكمة

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0054796

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
المحجوب قدار. "السخرية السياسية في عصر الموحدين من خلال نموذج أحمد بن يحيى العبدري".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون: ديسمبر ٢٠١٨. ص٤٩ – ٥٤.

مُقَدِّمَةٌ

استطاع الموحدون بناء دولة قوية في الغرب الإسلامي بين القرنين السادس والسابع الهجريين امتدت على أطراف شاسعة من المغرب والأندلس، وعلى الرغم من قوة نظامهم السياسي وما حققه من إنجازات، فإنه لم يسلم من النقد الذي استهدف انحرافات وأخطاء السلطة الحاكمة. لكن أشد أنواع ذلك النقد هو ما اتخذ طابع السخرية السياسية بحكم أنه يجمع بين النقد الضمني والصريح فضلاً عن قدرته الكبيرة على لفت الانتباه إلى أخطاء وهفوات الحكام، فكان بذلك أبلغ أثرًا وأكثر وقعًا أحيانًا من النقد المباشر.

ويُعَدّ أحمد بن يحيى العبدري أحد العلماء والأدباء الكبار الذين أتقنوا فن النقد الساخر من آل عبد المؤمن، استغل قدراته الإبداعية وجرأته السياسية في توجيه رسائل سياسية قوية إلى خلفاء الدولة الموحدية بطريقة ساخرة. فكان بذلك نموذجًا بارزًا، على الرغم من الصمت الذي طال أخباره في المصادر التاريخية الإخبارية. وقد استطعنا معرفة أخبار العبدري بفضل ما نقلته لنا بعض كتب التراجم. فإذا كان موضوع الاحتجاج الثوري في الفترة الوسيطية قد أخذ حيزًا مهما من اهتمامات الباحثين باعتباره مثل أحد أشكال المواجهة الدامية أحيانًا بين السلطة الحاكمة والثوار[1]، فإن الاحتجاج الساخر الذي مثل نقدا سلميا لم ينل حظه الكامل بعد في

الدراسات التاريخية. وقد وظفت فيه أدوات وأساليب مختلفة، وتم ممارسته غالبًا بشكل فردي، كما خلف نتائج مهمة في كثير من الحالات.

ولا شك أن الحاجة إلى دراسة تاريخ النقد والاحتجاج وأثرهما على الواقع السياسي تبدو أكيدة لإماطة اللثام عن بعض جوانب تفاعل المجتمع بمختلف فئاته مع القرارات السياسية للسلطة الحاكمة، وبيان مدى تأثر أصحاب القرار بما يثار عنهم من نقد ساخر، فضلاً عن معرفة رد فعلهم منه. وسنحاول مقاربة هذه الإشكالية من خلال دراسة نموذج أحمد بن يحيى بن أحمد بن سعود العبدري الذي عاش خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.

أولاً: أحمد بن يحي العبدري والسخرية السياسية

عرف العصر الموحدي بروز عدد كبير من العلماء والأدباء والفلاسفة الذي أغنوا الحضارة المغربية والإسلامية بعلمهم وإنتاجاتهم الغزيرة، فأضحت المدن الكبرى في الغرب الإسلامي مراكز إشعاع ثقافية مهمة استقطبت الكثير من الأعلام، وعلى رأسها مراكش عاصمة الدولة آنذاك التي حج إليها العلماء من الأندلس وغيرها للاستفادة من أجوائها العلمية وللظفر ببعض خطط الدولة. ولقد كان أحمد بن يحيى العبدري من بين العلماء الذين نزحوا من الأندلس إلى حضرة الدولة الموحدية فسطع نجمه بها. فمن يكون أحمد بن يحيى العبدري؟

هو أحمد بن يحيى بن أحمد بن سعود العبدري[٢]، يكنى أبا العباس وأبا جعفر، عاش خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، أندلسي الدار قرطبي النشأة، نزل مراكش شأنه شأن عدد من العلماء أمثال ابن رشد وابن طفيل وابن زهر ...، ولا نعلم متى نزح العبدري إلى مراكش لكنه بقي بها إلى أن توفي بها سنة ٥٩٩ هـ[٣]. ولقد عرف بسعة علمه وعمق معرفته "فكان مشاركًا في فنون العلم محدثًا مسندًا عالي الرواية حلو النادرة قوي العارضة صدرًا في مشيخة أهل العلم بمراكش"[٤]. إلا أنه غلب عليه إتقانه لفن الأدب، فخلف فيه المنظوم والمنثور وهو في الغالب مما ضاع من تراث الغرب الإسلامي.

أخذ العلم على يد شيوخ كبار وروى عن الكثير منهم أمثال أبي اسحاق بن مروان بن حبيش وأبي بحر سفيان بن العاصي وأبي بكر بن عبد الله بن العربي وغيرهم، كما روى عنه أبو الربيع بن موسى بن سالم وأبو عبد الله بن محمد بن دادوش وأبو يعقوب بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلي المعروف بابن الزيات (ت. ٦١٧هـ) صاحب كتاب التشوف[٥]. ومن شدة اهتمامه بالعلم اقتناؤه لعدد كبير من دفاتر العلم، حتى أنها قومت عند وفاته بأزيد من ستة آلاف دينار[٦].

ولا شك أن كفاءة العبدري العلمية هي التي فتحت له الطريق نحو التقرب من السلطة الحاكمة والأمراء ورؤساء الدولة، فقد كتب لعدد من الأمراء بفضل براعته الأدبية والخطابية وجودة خطه[٧]، وبذلك تمكن من الدخول في فلك النخبة المجتمعية وقتئذ، وحسبنا أن كان "خطيبا عند الأمراء مقداما في مجالسهم مقبول القول لديهم مبرزا عند الخاصة والعامة"[٨]. كما كان يحاضر طلبة العلم بمجالس المنصور ويذاكرهم بين يديه، حتى أصبحت له مكانة كبيرة لدى بني عبد المؤمن "مرعي الجانب ملحوظًا بين التكرمة محترما لشاخته واضطلاعه بالمعارف"[٩].

ومما ميز العبدري إلى جانب سعة علمه شخصيته المرحة وروح النكتة والدعابة التي كان يضطلع بها، حتى أنه اشتهر بين الخاصة والعامة بنوادره وطرائفه، الشيء الذي مهد له الطريق لقلوبهم، وهو ما استغله لتوجيه رسائل قوية إلى السلطة الموحدية بطريقة نقدية ساخرة كلما سنحت له الفرصة، "فقد كثر منه الاجتراء على الأمراء من آل عبد المؤمن وتكرر شكيته عليهم وتشنيع أحوالهم"[١٠].

وغير خاف ما للنقد الساخر من تأثير وقدرة ساحرة على لفت الأنظار نحو المواقف الخاطئة عند بعض الساسة، كما أنها قد تكون أبغ أثرًا من سائر فنون النقد. وغني عن القول إن هذا النقد يمثل أحد نماذج السخرية السياسية التي تعكس أحد أوجه التعبير الرافض للواقع السياسي، ووسيلة للتعبير عن عدم الرضا عن الأوضاع العامة والرغبة الأكيدة في التغيير ومقاومة الفساد وتصحيح العلل الموجودة في السلطة والحياة الاجتماعية عامة. كما أنه ليس فنًا حديثًا كما قد يبدو للبعض بل قديم النشأة تمت ممارسته من قبل خلال كل العصور خاصة خلال العصر العباسي.

ثانيًا: سخرية العبدري السياسية من الخليفة يعقوب المنصور الموحدي

لم تسلم السلطة الموحدية من الانتقاد سواء من طرف العلماء أو من المتصوفة أو حتى من عامة الناس في بعض المواقف والتصرفات التي كانت تقدم عليها ولا تلقى قبولا من طرف الناس. وقد اتخذ ذلك النقد مراتب متعددة تراوحت

بين النقد الضمني والصريح، بل تطورت أحيانًا إلى أشكال أخرى كاندلاع ثورات شعبية ذات زعامات مذهبية أو صوفية، كثورة الجزيري بين سنتي ٥٧٩ و٥٨٦ هـ، وثورة عبد الرحيم بن الفرس أحد علماء الأندلس، وثورة الجزولي سنة ٥٩٧ هـ[١١].

وإذا كان البعض قد اختار الأسلوب المباشر في نقد أخطاء السلطة الحاكمة، فإن البعض الآخر قد فضل النقد الساخر كطريقة وأسلوب للتعبير عن مواقفه من السياسة العامة للبلاد، وتمرير رسائل انتقاد قوية للحكام بطريقة ساخرة تجمع بين النقد الضمني والصريح وتستهدف إصلاح الأوضاع وتصحيح الأخطاء. وبحكم ما يتطلبه هذا الفن من موهبة وقدرة إبداعية مميزة فضلا عن الشجاعة وقوة الشخصية فإنه قلما واجه به العلماء والأدباء السلطة الحاكمة، سيما وأن ممارسة هذا النقد الساخر يتطلب وجود سلطة سياسية منفتحة تتيح مساحة كبيرة من الحرية. ولعل انتفاء هذه الشروط هو ما أسهم في ندرة ممارسي هذا الفن في العصر الموحدي. وعلى الرغم من ذلك فقد برزت شخصية العبدري التي جمعت بين الكفاءة العلمية والشجاعة السياسية والروح المرحة، فاستطاع بذلك ممارسة سخريته السياسية على حكام بني عبد المؤمن بطريقة فنية غير مباشرة، ومما شجعه على ذلك قربه من السلطة الموحدية فضلاً عما تمتع به من شخصية مرحة، ولا غرو فقد كان "حلو النادرة قوي العارضة ..."[١٢]، وهذا ما جعله مقبول الجانب في حضرتهم[١٣].

وقد اتخذت سخرية العبدري طابعًا خاصًا ومتنوعًا سيما في مواجهة خلفاء الموحدين حيث تنوعت سخريته بين استخدام الكلمات والمعاني والاستعانة بالتقليد والتشبيه. ومن مواقفه الساخرة الشهيرة في مواجهة أخطاء الخليفة المنصور أنه لما قام هذا الأخير بتقديم "بنيه وصغار إخوته وبني أعمامه وذوي قرابته ولاة في البلاد ترشيحا لهم وإشادة بمكانتهم لديه وتنبيها لقدرهم"[١٤]، لم يرق ذلك لرؤساء الدولة وأنكروا ذلك عنه، لكنهم لم يقدروا على مواجهته ومجاهرته. أما العبدري فإنه لم يسكت عنه بل قرر مواجهته بطريقته الخاصة والاحتيال عليه بسخريته المعهودة لفسخ ذلك التقديم، وقد وافق ذلك فصل شدة القيظ "فعمد إلى أزياء الملابس التي جرت عادة المترفين باستعمالها في فصل شدة القر كالفرو وثياب الملف والقباطي والبرانس، فاستكثر من لباسها وظاهر بعضها ببعض وحضر بهذا بمجلس خواص الطلبة ومجتمعهم بدار الإمارة، فعجبوا من استعماله مثل تلك الشارة في ذلك الفصل واستشعروا أن فعله ذلك لإحدى فواقره، ومقدمة لبعض نوادره فسألوه عن سبب مظاهرته بتلك الملابس في ذلك الفصل الذي لا يستطيع أحد استعمال مفرداتها فقال لهم: إنما قدرت أنه فصل القر وشدته وأنا منه في شهر يناير بلسان الروم ... فقيل له: وما الذي حملك على هذا التقدير فقال: إني رأيت المدائن فرقت على الصبيان والأطفال يعبثون بها ويعيثون فيها ثم يأكلونها، يوري عن المدائن وهي البلاد بالمدائن التي عهد ببلاد المغرب والأندلس عملها في النيروز من الدقيق ... ثم يدفع ذلك كله إلى الأصاغر إدخالا للسرور وتوسيعًا في الترفيه لأحوالهم، وتبشيرًا بخصب عامهم وتفاؤلاً لبسط الرزق فيه لهم، فيبهجون ويتمكن جذلهم ويتفاخرون بمقاديرها بينهم ويتمادى ... لديهم أياما بحسب كثرتها وقلتها، ثم يأتون عليها أكلا وتفكها بما معها من أصناف الطرف والفواكه".[١٥]

وغير خاف أن النص السالف يحبل بدلالات ومعاني انتقاد قوية لقرار المنصور تعيين أبنائه وقرابته على رأس الولايات، أتقن العبدري التعبير عنها بأسلوبه الخاص الذي عمد فيه إلى قلب العوائد. منبها إلى أن تدبير أمر الولايات يحتاج إلى رجال أكفاء يقدرون المسؤولية بغض النظر عن كونهم أبناء الخليفة أو غيرهم، وليس إلى صبيان صغار يضيعونها فتضيع بذلك البلاد في يد الأعداء سواء في المغرب أو الأندلس. مشيرًا إلى أن أمر الولايات أكثر من أن تفرق على صبيان صغار لإرضائهم وإدخال السرور عليهم بقدر ما تتطلب التأني في التعيين والحزم في التدبير. وقد عبر عن الولايات بالمدائن[١٦] التي تطلق أيضا في بلاد المغرب والأندلس على إحدى الحلويات التي يعملها "أهل المغرب من العجين بأصناف الألوان في النيروز المعروف عندهم بينير"[١٧]. فالوقت الذي تصنع فيه في هذه الحلوة المعروفة بالمدائن وتوزع على الصبيان هو فصل الشتاء وهو فصل يستدعي التكثير من اللباس، ولما رأى العبدري أن الولايات قد فرقت على أبناء المنصور وقرابته صغار السن في وقت صادف شدة القيض وجدها فرصة للربط بين العنصرين في سخريته من الخليفة. وكأن لسان حاله يقول إذا كانت المدائن قد فرقت على الأطفال فما العيب في أن ألبس لباس الشتاء في الصيف وقد قلبت العوائد؟

ولسنا في حاجة إلى التأكيد على الشجاعة التي ينم عليها هذا الموقف الذي اتخذه العبدري من قرار المنصور والذي لم يقدر على مثله كبار رؤساء الدولة الذين اكتفوا بإنكار القرار خُفية، وخِيفة من عقاب الخليفة. كما يبدو من خلال موقف الحاضرين بمجلس خواص الطلبة بدار الإمارة من سخرية العبدري أنهم ألفوا نوادره وسخريته المعهودة ممن حوله ومن قرارات الخليفة نفسه. وتجدر الإشارة إلى أن أمر تعيين آل عبد المؤمن لأبنائهم وقرابتهم على رأس الولايات قد كان معمولا به منذ عهد الخليفة عبد المؤمن خاصة بعد إعلان الحكم الوراثي[١٨]. حيث حرص عبد المؤمن على إدماج آل بيته في دواليب الدولة بغية تقوية البيت الداخلي، وتأمين دولته من الانفلاتات التي قد تحدث في بعض الولايات، لكن أن يصل نقد فرد معدود على الخاصة إلى هذا المستوى من السخرية من السلطة الحاكمة أمام الملأ فهذا أمر يستدعي التساؤل عن موقف الخليفة المنصور منها، ثم عن أثرها في الدولة والمجتمع؟

ثالثًا: آثار ونتائج السخرية السياسية للعبدري

من المستبعد أن يكون الهدف الأساسي من النقد الساخر التي يمارسه البعض ضد الحكام والمتنفذين في السلطة هو الترويح عن أنفسهم وإضحاك الناس، فلا شك أن ممارسي النقد كانوا يستهدفون تغيير الواقع السياسي وتقويم اعوجاج السلطة الحاكمة بطريقتهم الخاصة فضلا عن إثارة انتباه الناس إلى مكامن الخطأ في إجراءات الحكام، فالعبدري لم يكن في الواقع يقوم بالسخرية السياسية من السلطة الحاكمة فقط من أجل إضحاك الناس والترفيه عنهم، بل كان يطمح إلى أبعد من ذلك. فهل استطاع فعلا أن يؤثر في قرارات الدولة وتغيير الواقع وفق رؤيته الخاصة؟

يطالعنا ابن عبد الملك المراكشي أن سخرية العبدري من قرار الخليفة المنصور كانت "سببا في فسخ ذلك التقديم وصرف هؤلاء الأصاغر عن تلك الولايات في البلاد"[١٩]، وعلى الرغم مما ينطوي عليه هذا التصريح من مبالغة فإن الوقائع التاريخية تفيد بأن الخليفة المنصور لم يكن يتوانى في إعفاء وعزل كل من يثبت في حقه التقصير في جانب الرعية، ومن ذلك إعفاؤه للسيد أبي زيد والي بجاية لعدم قدرته على تدبير أمورها بسبب الفتنة التي قامت بها وقدم عليها السيد أبا عبد الله[٢٠]. كما عزل السيد الرشيد والي مرسية بتهمة موالاة الأدفنش ومحالفته وجوره في حق الرعية وأخذ أموال التجار[٢١]، ونفس الإجراء اتخذه في حق ابن عمه ابن أبي الربيع والي تادلا بتهمة "خلعه للطاعة ومجاهرته بالشقاق"[٢٢]؛ ولما تحقق المنصور من أفعال هذين السيدين الأخيرين أمر بإعدامهما[٢٣]. ومهما يكن من أمر هذا الفسخ فقد كان للعبدري أثر بالغ فيه بالنظر إلى النقد اللاذع والساخر الذي وجهه للخليفة المنصور أمام خواص طلبته وخاصته وبدار الإمارة.

ومع ذلك كان من البديهي أن يلقى العبدري عقابًا شديدًا من وراء نقده الساخر لقرارات أعلى سلطة في البلاد، خاصة إذا علمنا أن النظام السياسي الموحدي قد تميز بصرامته وتشدده مع منتقديه، علاوة على كونه نظامًا مغلقًا تركزت فيه كل السلطات في شخص الخليفة. لكن المثير للانتباه أن الخليفة المنصور لم يعاقبه عقب تلك النازلة بل استمر العبدري في الحضور في مجالسه وإلقاء المحاضرات على الطلبة بين يديه محفوفا بالرعاية والتكرمة[٢٤]، وإن كانت تلك السخرية الجريئة للعبدري قد أثرت على أمراء آل عبد المؤمن فاستثقلوه واستجفوه[٢٥]. فهل يدل هذا على سعة مساحة حرية التعبير في عهد المنصور؟ أم أنه أرجأ له العقوبة إلى حين تلبسه بجرم مشهود احتراما لعلمه ومكانته ضمن الخاصة والعامة؟

يبدو من خلال الشواهد التاريخية أن المنصور الموحدي قد ضيق مساحة التعبير أمام الرعية خاصة منهم العلماء سيما إذا تعلق الأمر بانتقاد السلطة الحاكمة، ودسبنا دليلا على ذلك نكبته لابن رشد، فقد عاقب هذا الأخير بسبب أفكاره وانتقاده للأوضاع في الأندلس، ولعلاقته المحتملة بأبي يحيى أخي المنصور الذي دعا لنفسه في قرطبة لما كان المنصور مريضًا[٢٦]. كما أن قرار الإبعاد قد شمل عددًا من العلماء الآخرين الذين نحوا نحوه في نقد الدولة[٢٧].

والواقع أن عقاب المنصور لأبي العباس كان مسألة وقت فقط، فالراجح أنه رأى أن عقابه للعبدري على سخريته تلك وهو المعروف بنوادره وفواقره[٢٨] يعد بمثابة إثبات الخطأ على نفسه، لذلك فإنه لم ينس له تلك الزلة التي اعتبرها إهانة للبيت الحاكم، بل أرجأ له العقوبة وبدأ يتعقب هفواته ويتحين له الفرصة، إلى أن وجد منه يوما بمجلسه ريحا مسكرا، وحينئذ لم يتوان المنصور في إقامة الحد عليه. ومن غيضه وحقده عليه حرص على أن يجلد بين يديه انتقاما منه على جرأته وسخريته؛ لكنه لم يجلده سوى أربعين جلدة، "فلما بلغ جالده أربعين جلدة أشار إليه أبو العباس بأن يكف وابتدر

لباس ثيابه وقال للمنصور: أنا أحد عبدانكم ولا يجب عليّ سوى أربعين جلدة منتهى حد العبد فقبل ذلك المنصور منه على علمه بما في طيه من التنكيت عليه"[٢٩]. وإذا كانت خفة ظله قد شفعت له ونجته من أربعين جلدة الأخرى، فإنها لم تحل بينه وبين الإبعاد الذي اتخذه في حقه المنصور، حيث هجره ومنعه من حضور مجلسه[٣٠] لكن هذه المرة تحت غطاء شرعي غير قابل للشك فيه. ولم يكتف بذلك بل بلغ به الأمر أن فرض عليه ما يشبه الإقامة الجبرية بأن منعه من التصرف في حوائجه كما منع عنه لقاء الناس[٣١]. واستمر حاله على ذلك خلال عهد الناصر، إلا أنه أباح له ما منعه عنه المنصور من التصرف في حوائجه ولقاء الناس، فأصابه الإخمال على إثر ذلك وبقي كذلك إلى أن توفي.[٣٢]

وعلى الرغم من شجاعة أبي العباس في التجرأ على الحكام وشهرته بين قومه بالتهكم والسخرية، فغير بعيد أن تكون سخريته تلك من الخليفة المنصور في هذه النازلة قد جاءت بإيعاز من بعض رؤساء الدولة وبتشجيع منهم، وهو ما يستشف من رواية ابن عبد الملك نفسه الذي لم يستبعد أن تكون حيلة العبدري تلك قد صدرت عن أحد رؤساء الدولة الذي أوعز له بالقيام بشيء ما لفسخ ذلك التقديم[٣٣]؛ خاصة إذا علمنا بأجواء المنافسة الشديدة التي كانت بين الأشخاص المحيطين بالخليفة حول الخط وتطلعهم إلى قيادة الولايات. ويبدو أن ابن عبد الملك المراكشي قد أعجب بسخرية العبدري من خلفاء بني عبد المؤمن، وإن كان قد وصف أعماله النقدية أحيانًا بالأخبار الجافية[٣٤]، لكن لا شك أنه كان مؤيدا للأهداف التي استهدف تحقيقها العبدري من وراء سخريته، ولا أدل على ذلك من نقله لنا نازلة أحمد بن يحيى مع الخليفة الموحدي المنصور.

ومهما يكن فقد كان مصير العبدري هو النكب كسائر الأشخاص الذين انتقدوا السلطة الحاكمة سواء نقد صريح أو ضمني. فعلى الرغم من المكانة العلمية التي بلغها والكفاءة التي أبان عنها، فإن ذلك لم يشفع له لدى بني عبد المؤمن. ومع أن السلطة الحاكمة لم تحكم عليه بالإعدام المادي إلا أنها قضت عليه بالإعدام الرمزي من خلال إبعاده وإقصائه من حضور المجالس العلمية في حضرة الخليفة أو مجالس الطلبة. بل الأكثر من ذلك تم منعه من اللقاء بالناس، مما يبرز خوف السلطة من النقد، خاصة ذلك الذي يكون مغلفا بالسخرية، وذلك لقدرته على ترك الوقع الكبير في الناس والتأثير عليهم، ومن ثم تحريك غضب وسخط الناس على السلطة.

والحق يقال إن سلوك النقد الذي أبداه وعبر عنه العبدري هو عين الصواب بصفته عالما، ذلك أنه بالإضافة إلى إنتاج المعرفة هناك دور النقد والتطوير الذي هو من الأدوار الحيوية للعلماء تجاه الأمة. كما أنه دور يروم البحث عن البدائل والاستعداد للتضحية بكل شيء بما في ذلك الحياة والحرية الفردية من أجل منع الظلم ونشر العدل، وهذا هو دور العالم النموذجي الذي لا يظل ساكتا ومفعولا به كسائر الناس، بل يحاول ما أمكنه الإصلاح بدل التواطؤ مع السلطة ضد مصلحة المستضعفين من الأمة.

خَاتِمَةٌ

قصارى القول، إن النقد الساخر من بني عبد المؤمن مثل أحد أوجه نقد السلطة الحاكمة، كما عبر عن موقف قطاع عريض من المجتمع وعلى رأسهم العلماء من التصرفات والقرارات الخاطئة للحكام، استطاع العبدري بشجاعته وبروحه المرحة التعبير عنه وفق رؤيته وخطته لبناء مجتمع تسوده العدالة الاجتماعية. وقد ساعده موقعه القريب من السلطة الحاكمة في إيصال رسائل النقد إلى مكانها الصحيح وتبليغها لمن يهمهم الأمر، مستغلا كل الفرص والمناسبات السانحة، ومستفيدا من مكانته العلمية لدى الخاصة والعامة، ولدى بني عبد المؤمن أنفسهم.

ونظرًا لارتباط ممارسة هذا النقد الساخر بمجموعة من القدرات والمؤهلات فضلا عن الشجاعة والجرأة السياسية، فإن حضوره كان قليلاً في العصر الموحدي، لكن آثاره كانت أكثر وقعا من النقد المباشر، وحسبنا أن العبدري استطاع من خلال سخريته أن يؤثر في صناعة القرار السياسي داخل الدولة. مما يؤكد على أهمية النقد الساخر في تحقيق ما يعجز عنه النقد الصريح أحيانًا، وفي المقابل يعكس خطورة هذا النوع من الاحتجاج على الأنظمة الحاكمة خاصة إذا كانت تلك السخرية صادرة من علماء كبار مشهود لهم بالكفاءة العلمية والمصداقية لدى العامة والخاصة. وما دام أنه ليس هناك تغيير بدون ضحايا أو على الأقل بدون مقابل، فإن شجاعة العبدري وجرأته قد كلفته فقدان الكثير من الامتيازات التي كان يتمتع بها. كما تبين من خلال البحث تفاعل السلطة مع النقد الساخر خاصة ذلك الذي كان يحمل رسائل سياسية مهمة، ولا غرو فالتعريض أهجى من التصريح.

الهَوامِشُ:

(١) للتعرف على ثورات العصر الموحدي ينصح بالرجوع إلى كتاب: **العمراني محمد، الثورات والتمردات بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي**، دار نشر المعرفة، الرباط، ٢٠٠٥. زنيبر محمد، **المغرب في العصر الوسيط: الدولة والمدينة والاقتصاد**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط.١، ١٩٩٩، ص٩٣ -٢٨٠.

(٢) انظر ترجمته عند: ابن عبد الملك الأنصاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق محمد بن شريفة، السفر الأول، القسم الأول، دار الثقافة، بيروت، د. ت، ص ٥٦٥. ابن الآبار، **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥، ج.١، ص ٨٤. ونقل عنهم: السملالي العباس بن إبراهيم، **الإعلام بمَنْ حل مراكش وأغمات من الأعلام**، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط. ٢، ١٩٩٣، ج.٢، ص١٠٣-١٠٦.

(٣) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل** ...، م. س، السفر الأول، ص ٥٦٥. ابن الآبار، **التكملة**...، م. س، ص ٨٤.

(٤) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل** ...، م. س، السفر الأول، ص ٥٦٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٦٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٦٥. ابن الآبار، **التكملة**...، م. س، ص ٨٤.

(٧) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل**...، م. س، السفر الأول، ص ٥٦٥. ابن الآبار، **التكملة** ...، م. س، ص ٨٤.

(٨) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل**...، م. س، السفر الأول، ص ٥٦٥.

(٩) المصدر نفسه، ص ٥٦٦.

(١٠) المصدر نفسه، ٥٦٥.

(١١) العمراني محمد، **الثورات والتمردات**...، م. س، ص ١٠٦-١٢٨.

(١٢) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل**...، م. س، السفر الأول، ص٥٦٥.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٥٦٤.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٥٦٥

(١٥) المصدر نفسه، ص٥٦٥-٥٦٦.

(١٦) وقد أنشد الشاعر الأديب أبو عمران موسى الطرياني في هذه الحلوة المعروفة بالمدائن (جمع مدينة) قوله:

مدينة مصـــــــورة تحار فيها السحرة
لم تبنها إلا يـــــدا عذراء أو مذرة
بدت عروسا تجتلى من درمك مزعفرة
ومالها مفاتـــح إلا البنان العشرة

ابن سعيد المغربي، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط. ٤، ص ٢٩٤.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

(١٨) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب قسم الموحدين**، تحقيق الأساتذة محمد إبراهيم الكتاني ومحمد زنيبر ومحمد بن تاويت وعبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط.١، ١٩٨٥، ص٥٠. ٩٢- ٩٤. ٢٥٢. ابن صاحب الصلاة (ت. ٥٩٤ هـ)، **المن بالإمامة**، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي ط.٣، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٤١. ٢١٦- ٢١٩. ابن الأثير (ت. ٦٣٠ هـ)، **الكامل في التاريخ**، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق، المجلد ٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.٤، ٢٠٠٢، ص٤٠٨. **تنظيماتهم ونظمهم**، دار الغرب الإسلامي، بدون تاريخ، ص١٨٢.

(١٩) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل**...، م. س، السفر الأول، ص ٥٦٦.

(٢٠) ابن عذاري، **البيان**...، م. س، ص١٨١-١٨٣.

(٢١) المصدر نفسه، ص١٩٩.

(٢٢) المصدر نفسه، ص١٩٩.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٠.

(٢٤) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل** ...، م. س، السفر الأول، ص٥٦٦.

(٢٥) المصدر نفسه، ص٥٦٥.

(٢٦) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق إحسان عباس، السفر السادس، دار الثقافة، بيروت، ط.١، ١٩٧٣، ص٢٦. الجابري محمد عابد، **المثقفون في الحضارة العربية: محنة أحمد بن حنبل ونكبة ابن رشد**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط. ٢، يناير ٢٠٠٠، ص١٥١.

(٢٧) المرجع نفسه، ص١٢٦.

(٢٨) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل** ...، م. س، السفر الأول، ص٥٦٥.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٥٦٦. وقد كان ذلك معتقد آل عبد المؤمن وطائفتهم قديمًا وحديثًا أن كل من خرج عن قبائلهم المعتقدة في هداية مهديهم وعصمته فهم عبيد لهم أرقاء. المصدر نفسه، ص ٥٦٦.

(٣٠) المصدر نفسه، ص٥٦٦.

(٣١) المصدر نفسه، ص٥٦٧.

(٣٢) المصدر نفسه، ص٥٦٧.

(٣٣) المصدر نفسه، ص٥٦٥.

(٣٤) المصدر نفسه، ص٥٦٥.